دروس من الخطبة الشعبانية للرسول الأكرم(ص) في استقبال شهر رمضان المبارك

تُعد الخطبة النبوية الشريفة التي استشرف بها الحبيب المصطفى، صلى الله عليه وآله، شهر رمضان المبارك في آخر جمعة من شهر شعبان المعظم، مدرسة شاملة ومتعددة الابعاد والمستويات في تربية وتنشئة الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس.

ولقد دأب أئمة الهدى، عليهم السلام، على تذكير الأمة بهذه الخطبة المباركة لما تشمل من أبعاد وآفاق معنوية وتربوية واجتماعية وجهادية، يمكن استلهامها من معين النصّ النبوي الشريف وهو يتحدث عن عظمة الضيافة الرمضانية الكبرى.

فالخطبة يرويها مولانا الامام ثامن الحجج علي بن موسى الرضا، عليه السلام، عن آبائه، عليهم السلام، عن مولانا علي بن ابي طالب أمير المؤمنين، عليه السلام، عن خاتم الرسل النبي الاكرم، صلى ا عليه وآله، والتي يقول فيها: «إن رسول ا، صلى ا عليه وآله، خطبنا ذات يوم في آخر جمعة من شهر شعبان...»، ثم يشرع، عليه السلام، في ذكر نصّ الخطبة النبوية الشريفة التي ترويها اكثر كتب المسلمين ،فيما يرويها الشيخ الصدوق في ثلاثة من كتبه، وكذلك العلامة المجلسي في «بحار الانوار»، وغيرهما لسبط رسول ا، على أبعاد الضيافة الرمضانية المباركة بقوله:

البشارة والضيافة

«أيها الناس انه أقبل اليكم شهر ا بالبركة والرحمة والمغفرة شهر هو عند ا افضل الشهور، وايامه من افضل الايام، ولياليه افضل الليالي، وساعاته افضل الساعات، هو شهر دعيتم فيه الى

ضيافة ا..».

فهنا يبين الرسول الكريم ،صلى ا عليه وآله، مغزى البشارة الالهية الرمضانية من خلال عبارة «أقبل اليكم»، باعتبار أن الذي يُقبل يحمل نوعاً من البشرى للمستقبلين، وكذلك يشير الى أن المستقبلين كانوا في انتظار قدومه المبارك، وهذا يعني ان الضيف الرمضاني القادم، يحمل أغلى الهدايا التي سوف يقدمها للمستقبلين لا يمكن قياسها بأي نوع من انواع الهدايا الاخرى التي يتداولها الانسان في حياته اليومية.

ان شهر رمضان أقبل مبشراً ومهدياً للامة المؤمنة، بل للناس جميعاً، بهدية الرب، التي لا تعوض، ألا وهي البركة، والرحمة، والمغفرة، ومن هنا لابد ان تكون ايامه ولياليه وساعاته من افضل الايام والليالي والساعات، بحيث لا يمكن للانسان ان يستغني او يرتوي من المعين والضيافة الالهية الرمضانية، فقد وضع في مائدتها ليس طعاماً مادياً شهياً، كان قد اعتاد عليه الانسان طيلة الـ (11) شهراً الماضية، بل انه طعام من نوع آخر و ذوق آخر، يستذكر المؤمن من خلال تناوله له لذائذ البركة والرحمة والمغفرة الربانية التي تقربه سبحانه وتعالى ونعيم جنانه.

ثم يخاطب النبي، صلى ا عليه وآله، الكريم جموع الامة واصفاً مكانتهم ببركة هذا الشهر الفضيل بقوله: «وجُعلتم فيه من أهل كرامة ا». وهذا يعني ان الاسلام يستهدف تحقيق الكرامة الانسانية من خلال الكرامة الالهية، وعلى كافة المستويات و الصعد، خلال التكوينية والتشريعية والحياتية والأخروية، بفضل تطبيق واستيعاب لباب ومغزى دروس وبرامج شهر رمضان.

ان تحقيق ... برقي السلم الى مرقى «اهل كرامة ا»، يرتبط بالاهداف الكبرى والغائبة، من خلق الكون والخليقة، كما صرح كتاب ا العزيز، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}، و لشهر رمضان الكريم الدور المحوري والمفصلي في إظهار وتحقيق هدف الكرامة الالهية للصائمين في هذا الشهر الفضيل.

التوازن بين الدنيوي والأخروي

و يربط النص النبوي الشريف بين العلائق البشرية في البعدين الدنيوي والأخروي، وهي أهم حاجة يتغافل عنها انسان اليوم وحضارة

اليوم المادية، التي تشرّع وتقنن وترسم لحياة الانسان في هذه الدنيا العابرة، بمعزل عن ماورائيات اللذات الفانية بقوله، صلى الله عليه وآله: «واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه». وهذه اشارة واضحة من النبي الكريم الى ضرورة الاستعانة بالصوم لاستقبال اهوال يوم القيامة والاعداد النفسي والروحي لذلك اليوم الخالد والازلي، وان لا قيمة لمنظومة عقائدية بشرية تهندس لحياة الانسان، وهي عاجزة عن توفير وتحقيق الاطمئنان النفسي لهذا الانسان بعد حياة عابرة ومؤقتة.

ويمضي النصّ النبوي الشريف في وضع ركائز ومقومات بناء صرح الامة الاسلامية عبر التأكيد على منظومة التكافل الاجتماعي، كونها الضمانة الاكيدة للتعايش الآمن والعيش الكريم بقوله، صلى الله عليه وآله، «وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقروا كباركم وارحموا صغاركم وصلوا ارحامكم واحفظوا ألسنتكم وغضوا عما لا يحل النظر اليه أبصاركم، وعما لا يحل الاستماع اليه اسماعكم وتحننوا على ايتام الناس يتحنن على ايتامكم»، وهذا ما تفتقر اليه الايديولوجية البشرية الوضعية، بحيث لا مكان في أدبياتها للتراحم وحب الفقير والعطف على الصغير وتوقير الكبير وتبني الايتام على أنها شريحة تستحق الكرامة الانسانية، كما لا مجال لعفة العين

واحترام الآخر ليس على المستوى السياسي والثقافي والاجتماعي، بل حتى على المستوى الشخصي بحيث يمتنع المؤمن عن النظر المغرض و «الوقح» للآخر، وذلك لتعارضه مع ثقافة «الحرمة»، والاحترام التي أرسى الاسلام قواعدها.

ثم يشير النصّ النبوي الشريف في الخطبة الرمضانية الى قانون «الفعل والجزاء»، في البعدين الدنيوي والأخروي وفق سلطان السنن الالهية، وتحت رقابة الرب المتعال، قبل مراقبة قوانين البشر لافعال الناس ومكافأتهم وفق افعالهم، فيقول، صلى الله عليه وآله، «أيها الناس.. من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه.

قيل: يا رسول الله. وليس كلنا يقدر على ذلك، فقال عليه السلام:
اتقوا النار ولو بشق تمرة، اتقوا النار ولو بشربة ماء..
أيها الناس.. من حسن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الاقدام، ومن خفف في هذا الشهر عما ملكت يمينه، خفف الله عليه حسابه، ومن كفّ فيه شرّه، كفّ الله عنه غضبه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومن قطع فيه رحمه قطع عنه

رحمته يوم يلقاه ومن تطوع فيه بصلاة، كتب الله له براءة من النار ومن أدى فيه فرضاً كان له ثواب من أدى سبعين فريضة، فيما سواه من الشهور، ومن اكثر فيه من الصلاة علي، أثقل الله ميزانه يوم تخف الموازين، ومن تلا فيه آية من القرآن، كان له أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور..».

وهكذا؛ يحثّ، صلى الله عليه وآله، الامة بشرائحها كافة للانخراط في مشروع؛ ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾، الذي يرسي أسس وركائز بناء المجتمع الصالح والمتماسك الذي لا يعرف التصدع.

ثمن الجنة

ويعرّج النصّ النبوي الشريف الى جنان الخلد التي يصبو اليها كل الناس إلا انهم متناسون شروط الرقي الى سماء الرحمة الالهية والاستزادة من نعيم الرب الخالدة، فيقول، صلى الله عليه وآله:

«أيها الناس.. ان ابواب الجنان في هذا الشهر مفتحة، فسلوا ربَّكم ان لا يغلقها عليكم، وابواب النيران مغلقة، فسلوا ربَّكم ان لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة فسلوا ربَّكم ان لا يسلطها عليكم»، مشيراً، الى ابتداء الرحمة الالهية، بفتح ابواب الجنان

لكل العباد وبدون استثناء في هذا الشهر الفضيل، وغلق كافة ابواب جهنم ولكافة العباد في هذا الشهر المبارك، وايضاً تكبيل حركة الشياطين، خلال ايام وليالي وساعات هذا الشهر العظيم. وما على المؤمن إلا ان يسعى للاستفادة من هذه الفرصة التاريخية الكبرى لمسح كافة الذنوب وترك المعاصي والتوبة النصوح ، والتعاهد مع الرب المتعال بعدم العودة للمعاصي واقتراف الذنوب لئلاّ تغلق ابواب الجنان وتفتح نيران جهنم وتنفلت الشياطين - لا قدر ا -.

وقال أمير المؤمنين،علي ابن ابيطالب عليه السلام، بقوله: «يا رسول ا! ما أفضل الاعمال في هذا الشهر؟ فقال، صلى ا عليه وآله: يا ابا الحسن..! افضل الاعمال في هذا الشهر الورع عن محارم ا عز وجل».

ثم بكى.. فقال: يا رسول الله؛ ما يُبكيك؟ فقال: يا عليّ! أبكي لما يستحلّ منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلي لربّك، وقد انبعث أشقى الأولين، شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك، خضّب منها لحيتك، فقال أمير المؤمنين، عليه السلام: يا رسول ا! وذلك في سلامة من ديني؟ فقال، صلى ا عليه وآله: في سلامة من دينك».

وبذلك تكون خطبة النبي الأكرم الخاصة في شهر رمضان المبارك، مناسبة لإعلان كشف نبأ استشهاد مولانا أمير المؤمنين وخليفته من بعده، بل وكيفية حادث الاغتيال الغادر، ويكون النبي أول المعزين له خلال هذه الخطبة، ومؤكداً مبدأ راسخاً بان خليفته من بعده لا يهمه من مشروع الخلافة والولاية والامامة من بعده إلا سلامة الدين.

و من سائر دروس الخطبة الشعبانية :

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم أمثلة لهذه البركة الاستثنائية منها:

1- "نومكم فيه عبادة".

2- "عملكم فيه مقبول".

3- "دعاؤكم فيه مستجاب".

كما بيّن صلى الله عليه وآله وسلم استثنائية الوقت فيه قائلاً:

1- "أيامه أفضل الأيام".

2- "لياليه أفضل الليالي".

3- "ساعاته أفضل الساعات".

لأجل هذه الاستثنائية في الشهر الفضيل دعا رسول ا صلى ا عليه وآله وسلم إلى اتباع البرنامج الآتي:

التحرّر بالعودة إلى ا

أوضح الرسول الأكرم صلى ا عليه وآله وسلم أنّ النفس الإنسانية تقيّدها وترهنها الأعمال السيّ ِئة، فتعيق مسيرتها الكمالية نحو ا تعالى، لذا دعا صلى ا عليه وآله وسلم إلى تحرير النفس بالاستغفار والتوبة إليه سبحانه فقال صلى ا عليه وآله وسلم: "إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكّوها باستغفاركم"، وقال صلى ا عليه وآله وسلم: "توبوا إلى ا من ذنوبكم".

الصوم الحقيقي

اعتبر النبيّ صلى ا عليه وآله وسلم أنّ الصيام تعالى فرصة كبيرة تحتاج إلى توفيق خاص من ا تعالى، وبالتالي فإنّ تحقّقه كما يريده عزّ وجل يحتاج إلى دعاء نابع من إخلاص القلب الذي طهّرته التوبة.

قال صلى ا عليه وآله وسلم: "فاسألوا ا ربّ َكم بنيّ ِات صادقة

وقلوب طاهرة أن يوفّقكم لصيامه".

أمّا عن الصوم الحقيقيّ المطلوب، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم اعتبر - في بعض أحاديثه الواردة- أنّه لا يقتصر على صوم البطن، بل هو بتعبيره الشريف: "إنّ أيسر ما افترض الله على الصائم في صيامه ترك الطعام"، لذا قد يحصل هذا النوع من الصيام من دون حصول النتيجة المطلوبة منه، وبتعبيره صلى الله عليه وآله وسلم: "ربّ صائم حظّهُ من صيامه الجوع والعطش".

وقد تحدّثت بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم السيدة الزهراء عليها السلام عن الصوم الحقيقي قائلةً - فيما ورد عنها -: "ما يصنع الصائم بصيامه إذا لم يَصُنْ لسانه وسمعه وبصره وجوارحه".

إذاً الصوم الحقيقي هو - إضافة إلى صوم البطن - صونٌ لأربعة أشياء نتحدث عنها تباعاً:

صوم اللسان

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته الآنفة الذكر: "واحفظوا ألسنتكم".

وحفظ اللسان هو صيانته عن الحرام، كالكذب والغيبة والبهتان والنميمة والسبّ والبذاءة وما شاكل.

وفي إطار الدعوة النبويّة إلى صوم اللسان ورد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع امرأة تسبّ جارية لها وهي صائمة، فدعا رسول الله بطعام، وقال لها: كلي، فقالت: أنا صائمة يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لها: "كيف تكونين صائمة، وقد سببت جاريتك؟ إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب".

وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام المرتبة الفضلى لصوم اللسان من صوم البطن قائلاً - فيما ورد عنه-: "صيام اللسان خير من صيام البطن".

صوم البصر

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته الآنفة الذكر:
"غضّوا عمّا لا يحلّ النظر إليه أبصاركم".
وغضّ البصر وهو الشرط في الصيام الحقيقي يتحقّق بتجنّب النظر إلى المحرّمات كالنظر إلى غير الزوجة بشهوة، وإلى ما يخفيه الناس ولا يقبلون النظر إليه كاستراق النظر إلى رسائل الآخرين

على الهواتف، وإلى بيوت الآخرين من على الشرفات، وكذا النظرة إلى أهل الإيمان نظرة إرعاب وتخويف وإيذاء وهكذا.

صوم السمع

قال صلى ا عليه وآله وسلم في خطبته السابقة: "غضّوا عمّا لا يحلّ الاستماع إليه أسماعكم".
وغضّ ُ السمع وهو الشرط في الصوم الحقيقي يتحقق بتجنب استماع المحرّمات كالغناء ونحوه.

صوم الجوارح

كصوم اليد عن الضرب المحرّم للزوجة والأولاد، وعن السرقة، وكصوم القدم عن الذهاب إلى الأماكن المحرّمة، الخ...

استحضار الآخرة

إن إحدى العبر التي ركّ َز عليها النبي صلى ا عليه وآله وسلم في خطبته هي تذكّ ُر الآخرة التي من عقباتها الجوع والعطش، فقال صلى ا عليه وآله وسلم: "واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم

القيامة وعطشه".

و الإمام زين العابدين علي ابن الحسين عليه السلام كان يدعو قائلاً: "وأعنّا على صيامه بكفّ ِ الجوارح عن معاصيك، واستعمالها فيه بما يرضيك، حتى لا نصغي بأسماعنا إلى لغو، ولا نسرع بأبصارنا إلى لهو، وحتى لا نبسط أيدينا إلى محظور، ولا نخطو بأقدامنا إلى محجور".

اعداد وتدوين
علي اكبر بامشاد